ISSN: (3006-8614)
E-ISSN: (3006-8622)
Journal of Alma'rifa for Humanities
available online at: https://uomosul.edu.iq/womeneducation/almarifa/

Moral Systems: An Ecological Reading of the Novel "The Master and the Insect" by Muhammad bin Jarash as a Model

Assist. Lect .Raghad Muhammad Jamal
University of Mosul /College of Education for women

***Corresponding author: E-mail :**
Raghad.mohammad@uomosul.edu.iq

***Keywords*:**
Ecological criticism, cultural criticism, Muhammad bin Jarash, science fiction.

ARTICLE INFO

Article history:
Received **10. Oct.2024**
Accepted **28.Nov.2024**
Available online **17.Mar.2025**

Email:
almarefaa.ecg@uomosul.edu.iq

Journal of Alma'rifa for Humanities
Journal of Alma'rifa for Humanities

ABSTRACT

Ecological criticism is a branch of cultural criticism that emerged as a reaction to the dominance of the dominant rational trend in Western capitalist civilization, which established the principle of excessive human exploitation of environmental resources and their components, after the progress of contemporary sciences in conjunction with the movement of industrial and civilizational development that worked to remove the boundaries separating what is human and inhuman away from any standards that preserve the environment's right to survive in the face of deterioration, ruin and extinction, which led to the exacerbation of the cultural crisis. Ecological criticism also came as a reaction to the dominance of the scientific trend and its development, especially after contemporary man invested in the results of science and positive knowledge, and the negative effects that resulted from those procedural practices that were directly reflected on man and the environment. The novelist sought to represent those ideas in the novelist's discourse. The study included three systems: the ecological system and the artistic imagination, the system of filth and purity, and the system of science fiction.

© 2025AJHPS, College of Education for Girls, University of Mosul.

أنساق الأخلاق قراءة أيكولوجية في رواية "السيد والحشرة " لمحمد بن جرش أنموذجًا

م.م. رغد محمد جمال
كلية التربية للبنات/ جامعة الموصل

الخلاصة:

يعد النقد الإيكولوجي فرعاً من فروع النقد الثقافي، ظهر بوصفه رد فعلٍ على سيطرة الاتجاه العقلاني المهيمن في الحضارة الغربية الرأسمالية التي رسخت مبدأ الاستغلال البشري المفرط للموارد البيئية ومكوناتها، بعد تقدُّم العلوم المعاصرة بالتزامن مع حركة التطور الصناعي والحضاري الذي عمل على إزالة الحدود الفاصلة بين ما هو إنساني واللاإنساني بعيداً عن أية معايير تحفظ للبيئة الحق في البقاء أمام التدهور والخراب والانقراض، مما أدى إلى تفاقم الأزمة الثقافية. وجاء النقد الأيكولوجي أيضاً رد فعل على سيطرة الاتجاه العلمي وتطوره، ولاسيما بعد أن استثمر الإنسان المعاصر نتائج العلم والمعرفة الوضعية، وما ترتب على تلك الممارسات الإجرائية من آثار سلبية انعكست بشكل مباشر على الإنسان والبيئة وسعى الروائي إلى تمثيل تلك الأفكار في خطاب الروائي وقد اشتملت الدراسة على ثلاثة أنساق: النسق الأيكولوجي والمتخيل الفني، نسق القذارة والطهارة، نسق الخيال العلمي.

الكلمات المفتاحية: النقد الايكولوجي، النقد الثقافي، محمد بن جرش، الخيال العلمي.

المقدمة

يعد النقد الإيكولوجي فرعاً من فروع النقد الثقافي، ظهر بوصفه رد فعلٍ على سيطرة الاتجاه العقلاني المهيمن في الحضارة الغربية الرأسمالية التي رسخت مبدأ الاستغلال البشري المفرط للموارد البيئية ومكوناتها، بعد تقدُّم العلوم المعاصرة بالتزامن مع حركة التطور الصناعي والحضاري الذي عمل على إزالة الحدود الفاصلة بين ما هو إنساني واللاإنساني بعيداً عن أية معايير تحفظ للبيئة الحق في البقاء أمام التدهور والخراب والانقراض، مما أدى إلى تفاقم الأزمة الثقافية. وجاء النقد الأيكولوجي أيضاً رد فعل على سيطرة الاتجاه العلمي وتطوره، ولاسيما بعد أن استثمر الإنسان المعاصر نتائج العلم والمعرفة الوضعية، وما ترتب على تلك الممارسات الإجرائية من آثار سلبية انعكست بشكل مباشر على الإنسان والبيئة، مما أحدث نوعاً من اختلال التوازن ولاسيما بعد التأثير السلبي الذي مارسه العقل الأداتي متذرعاً بحجة التقدم والرقي الذي مارسته التقنية / التكنولوجيا تزامنًا مع تطور العلوم وما كرسته المرجعيات الفلسفية، ابتداء من الفلسفة اليونانية، والديانة المسيحية واليهودية، والفلسفة الديكارتية، التي وضعت القسمة الثنائية التي أقامتها ما بين الأنا المفكر و المادة الممتدة، مما أدى إلى وضع الأنا مقابل العالم، والذات مقابل الموضوع، والإنسان مقابل الطبيعة، وهذا ما شكَّل استغلال الإنسان للطبيعة الذي دفعته إليه قواه البيولوجية المكتسبة في سياق التطور الحضاري، ووضعت الحدود الفاصلة ما بين العقل/ المادة ، الثقافة /الطبيعة، في مقابل صعود (الأنا) مأخوذة بنظرة الاستعلاء؛ وذلك لتفرده بالعقل المحقق للفضيلة وصولا إلى المركزية البشرية، وهذا ما أدى إلى هبوط العالم إلى مرتبة الخاضع والدوني، امتدادًا جامدًا للذات العارفة التي حول أسرارها إلى قوانين وقوى ميكانيكية بالتوجه إلى معرفتها وفك شفراتها الدلالية والتصرف والتلاعب بها. لقد شكَّل ذلك العقل الأداتي عقبة أمام تطور الإنسان الذي عبث بالطبيعة وسخر مواردها لمصالحه الخاصة بوصفه صاحب السلطة الأعلى في الكون، من هنا يمكن القول: إنَّ العقل والمعرفة وضعا الإنسان المعاصر أمام مشكلة أخلاقية وجودية لم يشهدها تاريخ البشرية

من قبل ذلك عبر التقنية والصناعة كتعبير عن عظمة الإنسان وسلطته وتحضره، أفيجب نقد العقل أم نقد المعرفة أم استهجان التقنية والصناعة؟ وهل يجب الحديث عن سلبية العلم الأخلاقية برفض التقنية والتضحية بمكاسب الإنسان المعاصر كلِّها؟ وما السبيل إلى الحفاظ على هذه المكاسب دون المساس بنواميس الطبيعة؟ لأن الابستمولوجيا عملت على فصل المعرفة عن القيم الخلقية بالشكل الذي يمنح المعرفة الصفة المطلقة ويرجح كفتها على الوازع الأخلاقي وهنا تكمن الأزمة. (مجموعة مؤلفين، 2020: 154)

وهذا ما دفع المفكرين إلى ضرورة إعادة طرح السؤال الأخلاقي بهدف التأسيس لأنموذج الأخلاقيات الجديدة / وأخلاقيات العمل، كنسق مضاد للفكر الأخلاقي التقليدي الذي يعد الذات المنطلق الأساسي في تحديد القيم الأخلاقية، فنحن بحاجة إلى أخلاق جديدة تنظم مبدأ توازن الإنسان مع البيئة، ومن شأنها أن توسع مجال النظرية الخلقية التقليدية، وتعيد النظر في السلوكيات والممارسات اليومية العادية التي تعد خاطئة من وجهة نظر الإيكولوجيين: كالتدخل في البرية، وقطع الأشجار، والعمل كخطوة أولية على تفكيك وتحطيم أسطورة العقل الأداتي الذي رسخ فكرة مركزية الإنسان الواحدية، ووسع الفجوة ما بين الأنا والآخر، وقدَّست الإنسان، وأضفت عليه هالة عقدية لتحقيق سموه عن باقي الموجودات تمهيداً لتأسيس فكرة النسق المتعالي، وتأكيد الجانب النفعي / البراغماتي، وتأكيد خاصية العقل التواصلي الذي نادى به المفكر الفرانكفورتي / الألماني "يورغن هابرماس"، في كتابه "فلسفة الأخلاق والتواصل" للوصول إلى العقل الإجلالي الذي يقدِّس الطبيعة.

ومن هنا يتخذ النقد الأيكولوجي من (خاصية النقد) منطلقاً لتأسيس مشروعٍ إنساني يعمل على نقد فكرة التقدم، والتطور المادي، وتقدم الإنتاج، وتنامي الاستغلال، وتعاظم الاستهلاك للموارد الطبيعية وهدرها للوصول إلى الرفاهية المطلقة، بهدف بناء مشروع عماده نظرة جديدة تؤسس لحضارة جديدة أساسها الانسجام، والتواشج، والتناغم بين ما هو مادي/ وروحي.

إنَّ الأزمة البيئية تجاوزت حدود كونها أزمة علمية وصولاً إلى كونها أزمة ثقافية، ويمثل اتجاه الإيكولوجيا رغبة الإنسان في العودة إلى الأصل/ الفطرة البدائية، تعبيراً عن ميل النزعة الإنسانية بالتمركز حول الطبيعة حيث الكونية والحلولية، بدلاً من التمركز حول الإنسان وتشكل اتجاه مضاد لهوس ثقافة الاستهلاك، وتأكيد التحرر من فكرة النفعية وتعيد الاعتبار للأرض، والمرأة، والطبيعة، لتشريع قوانين تؤصل لأخلاق جديدة تمكن الإنسان من مواجهة سلبيات العلم بعد صياغة علاقة الذات بالآخر للوصول إلى أنموذج جديد يعمل على تمكين الإنسان من السيطرة على الطبيعية، والتأسيس للعقل البراغماتي الملتزم بالأنموذج الإرشادي من حيث تفعيل مبدأ الالتزام والواجبات والتشديد على الموقف التعاوني كشكل من أشكال السلوك؛ لأن الخطاب الغربي لا ينسجم في بعده المعرفي وطروحاته الفكرية مع أخلاقيات البيئة، وعلى الخطاب النقدي أنَّ يتولى العمل على تفكيك تلك الخطابات المهيمنة، وما تنطوي عليه من أنساق مضمرة؛ للكشف عن قبحياته وبهرجته وزيفه من أجل الوصول إلى بناء عقلانية جديدة مبنية على أسس المعرفة الإيكولوجية، من هنا تتطابق الأخلاق البشرية مع منظومة الأخلاق البيئية، فيتمثل في الوعي القيمي الجديد بغية تطوير المنظور الإنساني حول القيمة والإلزام ،ويبحث عن معيار التوازن واحترام الطبيعية "وبتعبير ليوبولد فإن الأخلاق تبحث عن علاقة الإنسان بالأرض والحيوان والنباتات التي تنمو عليها" (زيمرمان، 2006: 43)، بهدف ضمان سلامة البشرية والتنبه إلى التحديات والمخاطر التي تواجهنا في المستقبل، ومع وضع التحليلات والحقائق الجزئية في وحدة تجمعها فإنَّ مهمة الفلسفة هي البحث عن القالب الذي يجمع الأجزاء في وحدة كلية كحقيقة قابلة للتأمل والفهم والنقد هكذا فان مهمة الإيكولوجية وهي البحث عن مبدأ تنظيم بنية العلاقات الداخلية من خلل واضطراب وتصدع وخراب ودمار الذي تسبب الإنسان في أزمتها.

وبذلك فإنَّ الواقع الثقافي الذي تعالجه الإيكولوجيا يتسم بالتعقيد بسبب تشابكه وتواشجه مع مستويات المادي، والإنساني والكائنات الحية، وهذا يعني أنَّ

الطبيعة تمثل النسق الكلي الذي هو عبارة عن تجميع مجموعة من الأجزاء المتراصفة المرتبطة بها آلياً، من هنا يتم النقد الأيكولوجي بصفة الشمولية لاتصاله بميادين النشاط البشري النظري والعملي جميعها.

لقد ظهر النقد الإيكولوجي في السبعينيات من القرن العشرين ونشأ في ظل اهتمام الدراسات الثقافية التي تبنت دور مساءلة العلوم المنتمية إلى حقل علم الاجتماع وأدّت دوراً حاسماً بها، كما ركزت على العلاقة المتداخلة ما بين أنماط الثقافة والطبيعة، أو ما بين الثقافة والمجتمع، أو بالتحديد ما بين الثقافة العليا والثقافة الدنيا، انطلاقًا من دور المعارضة والاختلاف، بعد أنْ كسرت مركزية النص وتطويعه كأداة في خدمة توجهاتها بوصفة مادة خاماً. لقد ظهر النقد الإيكولوجي متأخراً قياساً بالدراسات والنظريات الأدبية؛ وذلك استجابة للتيارات الفكرية العالمية الفلسفية والسياسية إذ يعد ثمرة فكر ما بعد الحداثة، مثيرًا بظهوره عدة إشكاليات، فطرح أسئلة ابستمولوجيا شغلت العقل النقدي: أ يعد هذا المنتج تتمة للمناهج النقدية الأخرى أم أنه دليل على فشلها ووصولها إلى طريق مسدود في فهم الخطاب الأدبي وتحليله؟ أم يعد فلسفة جديدة لتجاوز النص إلى ما وراء النص؟ وأين موقع هذا المنهج من النقد اليساري وما بعد الحداثة؟ (بدران، 2015: 193)

لقد ارتبط النقد الإيكولوجي بحركات التمرد المضادة للثقافة السائدة: كحركة حقوق النساء وحركة الحقوق المدنية، وحركة حقوق الحيوان، التي فرضت بمنطق القوة والسلطة وأصبحت موقع استقطاب وجذب سياسي ولاسيما في الخمسينيات والستينيات، ويعرف "جرج جيرارد" النقد البيئي بأنه ببساطة "هو النقد الذي يدرس العلاقة بين الأدب والبيئة المادية. فكما يبحث النقد النسوي في العلاقة بين اللغة والأدب من منظور واع للجنس (gender)، ومثلما يستحضر النقد الماركسي وعياً وإدراكًا لأنماط الإنتاج، والطبقة الاقتصادية عند تعامله مع النصوص الأدبية، يتخذ النقد البنيوي منهجاً يرتكز إلى الأرض في تعامله مع النصوص الأدبية"(جرارد،2009: 15).وينظر أيضا (إدجار، جويك، 2014: 116-117)

في حين يعرف "آرنست هيكل" الإيكولوجية بأنها "العلم الذي يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها بما أن البيئة هي الوسط الفيزيائي والفسحة التي تمارس فيه الكائنات الحية وجودها على وفق آلية التفاعل المستمر وما يترتب عليه من ظهور علاقات معقدة ومركبة قد تنعكس سلباً أو إيجابًا على الوجود على مستوى التطور والارتقاء والاستمرارية. وقد اشتق هذا المصطلح من الكلمة اليونانية oikos (منزل الأسرة) ونقلت دلالته إلى كوكب الأرض" (زيمرمان، 2006: 1/9-10).

يشير هذا الاتجاه الجديد إلى خاصية التكيف والتفاعل الأنا مع الآخر في إطار المنظومات البيئية على عَدِّ أنَّ الكل أكثر من مجموع أجزائه المكونة له. لقد عرف هذا النقد بمسميات عدة كـ الدراسات الثقافية الخضراء، والشعرية أو البويطيقا البيئية، والنقد البيئي الأدبي، والنقد الإيكولوجي ويعد وليام روكيرت أول من صك مصطلح النقد البيئي عام ١٩٧٨ في مقالة له نشرت " lawareview" تحت عنوان الأدب وعلم البيئة: تجربة في النقد البيئي ويرى أنَّ هذا العلم جاء تطوراً كعلم طبيعي في أواسط القرن التاسع عشر في سياق التوسع المتزايد للتخصصات العلمية بالتزامن مع تطور النظرية الداروينية، ويرى أنَّ الكائنات تتطور عن طريق خاصية التكيف والتعايش مع بيئتها، ومن شأن التغيرات التي تطرأ على البيئة أن تقلع الأفراد الأقل قدرة على التكيف والمعايشة والتفاعل الثقافي، ومن يكتسب صفة البقاء يعمل على نقل سماتهم إلى ذريتهم. ومن ثم جاء بعده بعشر سنوات ما يعرف بـ ميل جلين لوف ليدعو في خطابه إلى نقد أدبي بيئي أمام الجمعية الأمريكية الغربية للأدب، وكانت دعوته بمثابة حافزٍ لمجموعة من الشباب المثقفين لتأسيس جمعية لدراسة الأدب والبيئة.(ويسلنج ، 2018: 368).

يمثل النقد الإيكولوجي التمثيل الواعي للانقلاب الفكري الشديد الصخب، وحركة فكرية مضادة للسرديات الكبرى للتعبير عن قلق الإنسان وهواجسه وأزماته وهمومه وتطلعاته المستقبلية، إذ ينقل الوعي من حيز التمركز الذاتي إلى حيز وعي المشاركة لتحقيق فعل التوازن ما بين الإنسان ومحيطه وعقد المصالحة مع

القيم والمحيط، وبذلك فهو يؤسس اتجاهًا جديداً يؤهله لعقل جديد، وبهذا تستطيع مواجهة الفلسفة المعاصرة المادية الذرائعية اللاأخلاقية اتسمت بصفات الانغلاق والتمركز حول الذات بعيداً عن أخلاقيات العمل المتعلقة بمستقبل الإنسان بتغليب نسق المادي على الواقع الإنساني (المثالي) بعيدًا عن التمسك بجوهر الالتزام والإحساس بروح المسؤولية بخلاف الفلسفة البيئية التي اتصفت بمبدأ الشمولية الداعية لمبدأ الحكمة والعدالة والحق، وذلك بالعودة إلى الطبيعة والفطرة الإنسانية التي جُبل عليها حيث البراءة والجمال المطلق، يقول كانط :"إنَّ البحث في الأخلاق الإيكولوجيا هو محاولة للعودة بالإنسان إلى طبيعته الخيرة، من بين النصوص التي تشرح معنى الأخلاق الإيكولوجية ذلك الذي يفرّق بين الإيكولوجيا الضحلة، والإيكولوجية العميقة عند آرني نايس. مثلاً تركز الإيكولوجية الضحلة على سطح المشكلات البيئية، وسن القوانين كفيلة بحل هذه المشكلات، أما الإيكولوجية العميقة فمهمتها والبحث عن نظرة متكاملة تشمل علاقة الإنسان بالقيم والأفكار الموجهة له في ضوء علاقته مع الطبيعية" (هنريك سكوليموفسكي، 2018، 106).

1- النسق الإيكولوجي والمتخيل الفني، جدل المعرفي والمتخيل:

وهو النقد الذي يبحث عن أثر المكان والطبيعة والأرض بعناصرها الحية وغير الحية بوصفها محفزاً جمالياً إبداعياً وقدرة الفنان على استثمار تلك المعطيات في نسج النص الأدبي وإعادة تشكيله. ويسعى إلى محاولة ترسيخ نحو علم جمال واقعي بالعودة إلى رحم الطبيعة والبيئة كمحفز جمالي وباعث على الاشتغال الفني عل وفق مناورة سردية تنطلق من الخارج نحو الداخل؛ لتعيد إنتاج محرق الدلالة وتخصيبها وتثريها. ويعد هذا النقد في طور التكوين والاشتغال النقدي ويُعنى بدراسة التفاعل الثقافي على وفق فن مركب يجمع بين الواقع والمتخيل أو المادي والنفسي (الروحي) على الصعيدين الوعي والممارسة الإجرائية المؤسسة على أرضية الأدب، كميدان واسع للاشتغال الفني، بما يسمح

للفنان بالتعامل مع عدة مفاهيم: كالمكان، والعرق، والطبقة ، والجنس، ما بعد الكولونيالية، النسوية، والرومانسية، والثقافية، التي ينشغل بمعالجتها بهدف تصحيح المفاهيم وتعرية المؤسسات السلطوية المهيمنة والمسيطرة على الطبيعة ومكوناتها جميعها بما فيها البشر داخل حدود النص الأدبي.

إنَّ الأدب والفن ينهضان على خاصية التخييل كطاقة إبداعية خلاقة، فالتخييل هو المحرك لميكانزمات العملية الإبداعية داخل عقل الفنان، قبل تشكُّل الموضوع واكتماله ونضجه فيكتسب في المرحلة الأخيرة صفة المتخيل الفني وذلك بتحويل الحادثة الثقافية من زمن واقعي إلى زمن سرمدي مطلق عبر منح المتخيل رموزا كتابية فيسقطها الفنان على الورق. إنَّ الفن ينهض على خاصية التخييل والتجاوز وتخطي الواقع بالانسجام مع قدرة الفنان في بناء الأحداث المستمدة من موضوعات البيئية التي تعد أحد أهم موضوعات (العلم). من هنا أصبح يشكل فعلاً ومجالًا إبداعياً، وهكذا يعد النقد البيئي كتابة ثانية قيد التنظير في طور التشكل والتكوين تحتاج إلى المزيد من الوقت من أجل بلورة رؤية خاصة ونوعية، تمكنه من صياغة مقترحات يطور بها أدواته الإجرائية برؤية معرفية ويرى "جوزيف ميكير" أنَّ النقد البيئي يُعنى" بدراسة الموضوعات والعلاقات البيولوجية التي تظهر في الأعمال الأدبية وهي محاولة في الكشف عن الأدوار التي يؤديها الأدب في علم الإيكولوجية والكائنات الحية" (شاهين، 2022م)

لقد جاء الخطاب الروائي يُعنى بمشكلات البيئية وتمثلاتها إلى جانب طرح العديد من القضايا الأخلاقية التي تسبب بها الرجل البورجوازي الذي بسط نفوذه على الآخر (الإنسان، والبيئة، والأرض، والمرأة)، فقدم الروائي قراءات متجددة على صعيد الوعي بالفكر والممارسة وهو يخرج من محيط شرنقة الذات إلى بوتقة الشمولية لتقديم معالجة اتسمت بميسم روح التجريب بهدف الوصول إلى مبدأ التوازن على وفق نظرة كونية متجددة للعالم تبحث عن العدالة والإنصاف والمساواة بعيداً عن بهرجة الحياة الطبقية وما تسببت به من مأساة والعمل على اقتراح الحلول بعيداً عن مبدأ الهيمنة الذكورية، والفوقية الأبوية المبررة

بالبايولوجية أو النوع بهدف تعظيم السلطة الواحدية المطلقة، فجاء الخطاب يشدد على العلاقة ما بين الإنسان والبيئة وأثر البيئة في تشكيل المتخيل الثقافي للجماعة في لحظة تاريخية محددة. لقد أدَّت البيئة –نظرة متجددة للطبيعة– دوراً كبيراً في تشكيل الرؤية الإبداعية للنص بما ينسجم مع مقصدية المؤلف ومرجعياته الثقافية وذلك كله بهدف إشباع الرغبة الإنسانية بالإفادة من مقومات الطبيعة ماديًا ومعنويًا لتجديد الخطاب الثقافي علميًا، وبذلك فإن الولوج إلى هذه الدراسة أشبه بالمغامرة التي تحاول وتسعى إلى تجذير مالا يتجذر؛ لأن الخطاب الروائي يتميز ببنية جمالية وثقافية تخييلية عالية الدقة ينطوي على عمق الطرح وجسارة الرؤية بعد أن أمتلك الفنان أدواته الفنية المائزة وقدراته الإبداعية التخييلية الساحقة في ارتياد فضاءات رؤيوية تمتلك أُلقها وتوترها وتحليقها الثقافي والجمالي الفذ في عالم الدهشة والامتاع الفني بما يسمح بتغير مسارات القرائية والاستراتيجيات الدلالية، يمنح النص طاقة جمالية فنية ذات أبعاد ثقافية رؤيوية المؤسسة على قاعدة التخييل الإبداعي الوهاج بما يشيء بالتنوع والتعدد والاختلاف الثقافي فيكسبه ثوب الشهرة للدلالة على عمق المحفزات الجمالية وفاعلية الرؤية التي استحوذت على النص الإبداعي بما يسمح بارتقاء المتخيل الى مرتبة سامقة من التحريض والإثارة الفنية. إنَّ قيمة هذا المتخيل الخصب والمتوهج تكمن في مقدار ملامسته للواقع بمحاكاة ما هو كائن وليس ما هو ممكن، ومن هذا المنظور يضفي المبدع رونقاً جديداً باهراً على عناصر تجربته قد يتجاوز حدود اللامتوقع في الفن بعد أن يرتقي بهذه التجربة من فوضاها وعبثها عن طريق المخيلة والعمل على تنظيمها جمالياً بالارتكاز إلى مرجعياته الثقافية في قوالب فنية تثير الدهشة والاستغراق وتخلق الإثارة التي تسمو بالفن عالياً كما هو مجسد وملموس وحقيقي داخل العمل الفني.

إنَّ ما يشاهده الفنان في العالم والواقع من حوادث وظواهر ونظرات وتأملات ثقافية تعمل عملها في استثارة الرؤية، وتحفزه وتستثير أحاسيسه الجمالية على مواصلة الإبداع فيكسب الخطاب دقة وانتظامًا الأمر الذي جعل الخطاب ينفتح على المزيد من الرؤى والدلالات تجسد رؤية الفنان للعالم. وبذلك يعيد الفنان رسم

انطباعاته وأفكاره ورؤيته الثقافية بريشته الإبداعية على وفق إيقاع سردي قصصي شائق يمتاز بالرشاقة الجمالية والدقة الانسيابية للدلالة على حنكته في تخصيب دلالاته الثقافية وتعميقها، فيكتسب صفة الإغراء وتحفز المتلقي مدفوعاً بشهوة الفضول القرائي لسبر عوالم الخطاب الروائي. لقد انطلق الروائي من التنبؤ للتحذير من الخطر القادم والرعب من أثر المكتشفات والتقدم التكنولوجي على المستقبل بالانطلاق من اللحظة الحاضرة نحو المستقبل الذي تخيله بصورة سوداوية مأساوية بالتركيز على الواقع الإثنوغرافي العربي بأبعاده وتشوهاته كلها، ويدعو إلى عالم تسوده الفضيلة والقيم الإنسانية.

يتفتح الخطاب الروائي -على لسان الراوي العليم- على مشهد سردي حركي يُعنى برصد أثر البيئة وتغير المناخ الجوي وأثر تلك المتغيرات الطبيعية وانعكاساتها السلبية على الإنسان. لقد وصل إلى درجة الاختناق وحد الموت، فيتحول الفضاء إلى فضاء مغلقٍ ينبئ ما ينطوي عليه هذا النسق الثقافي من جماليات القبح على وفق فن (مخاتل) يقترب من الواقع من جهة، وينأى عنه من جهة أخرى وهو خطاب يلامس الواقع مساً شاعرياً طفيفاً ثم يرتقي ويسمو به عالياً على وفق سرد مركب يجمع ما بين الحس والعقل، يمثل قدرة الراوي على التقاط جزئيات الواقع بكل منمناته الصغيرة للتعبير عن الارتداد الحسي والشعوري النقي تجاه واقعه الذي ينطوي في نسقه المضمر على قيمة احتجاجية ضد الواقع، وقدرته على رصد المواقف المحتدمة في عالمه الوجودي، وتقديمه على وفق رؤية ثقافية يعيد إنتاج اصطراعات شخصية مع أحداثه وتقلباته كما تمثل في المشهد السردي على لسان الراوي العليم:

"كان صباحاً كئيباً كسائر الصباحات الخريفية في مدينته التي تطالعه.

كلما خرج من بيته في تمام السابعة امتلأ رأسه بأحاديث الأكبر سنا حول هذه المدينة التي لم تكن غارقة في الضباب مثلما هي الآن.

إن كان كلامهم صحيحاً فإنه يجهل سبب هذا التحول، هل هو تغير المناخ؟ هل هي المصانع الكيمياوية؟ أم تعود إلى ظروف غامضة لا يمكن تفسيرها.

تساءل: هل مبعث ذلك هو كآبة سكانها التي غمرت أجواءها بتلك الغلالة الضبابية الكئيبة؟ هو لا يعرف، ولا يفكر كثيراً في الأسباب بل يفكر في أمر واحد سد أفقه كلما استقبل هواء مدينته الخانق كل صباح حتى تخيل أن هذه المدينة سوف تخنق أنفاسه يوماً ما" (بن جرش ، 2021 :5)

يفتتح الراوي العليم المقطع السردي الذي يشكِّل الفاتحة النصية يحمل دلالة رمزية بنبرة احتجاجية صادقة يعمل على تعرية الواقع بكل ما فيه من تنافر وإهمال وضياع وتشتت، متسائلاً عن السر الذي يكمن وراء التغيرات البيئية،_ أ مرد ذلك إلى عامل نفسي أم كوني؟_ بعد أن خيم الضباب على المدينة فانعكس على شعور الإنسان بالاكتئاب والحزن قد يصل حد شرنقة الموت. ويتضمن النص المقبوس إشارة فكرية إلى أثر المرجعية البيئية (المكانية) بكل ما تختزنه من صور وأنساق، إذ شكَّلت خير معين خصب يستمد منها أفكاره ومواقفه ورؤاه ومنظوراته الوجودية، ويطرحها عبر الصورة السردية المتحركة التي عكست إحساسًا بالأزمة جرآء التلوث البيئي. وتستمر آلية السرد بطرح أسئلة معرفية على لسان الراوي العليم للكشف عن أهم التحولات الثقافية التي تشهدها البيئة أيعد هذا التحول ذاتياً / طبيعياً، أم تحولاً صناعياً؟ أم مرد ذلك إلى ظروف أُخر ميتافيزيقية/غامضة يجهلها الإنسان ويواصل السرد بتوجيه نقده للبيئة الإيكولوجية بتسليط الضوء على الجرائم التي يرتكبها الخبراء في ميدان زراعة الأرض وأخلاقيات العمل المتبعة في ميدان التطبيق، بعد أن أصبح الغش والفساد مسيطرين على منظومتنا القيمية، فالعقل الإنساني تحول إلى عقل مادي، وأصبح الوجود مرتهن بسياسة الترشيد في خدمة العقل الأداتي؛ لتحقيق سياسة المنفعة والأرباح على حساب الجانب المعنوي والأخلاقي، يقول الراوي العليم على لسان الشخصية الرئيسة (أحمد):

"مضى في طريقه بتؤدة رافعاً يده في فتور لتلقي التحية على صاحب متجر الفاكهة المجاور توقف عن شرائها منذ فترة، بل توقف عن تناولها أصلاً، إذ وجد من السخف تناول تلك الفاكهة التي تزرع في حقول المدينة، وهو يعلم أن هذه الفواكه جذابة من الظاهر ليس إلا، فعمله في مختبر الأبحاث البيولوجية جعله

يطلع على الجرائم التي يرتكبها الخبراء في زراعة تتنافى مع الطبيعة لا لشيء إلا لزيادة أرباح السيد دون التفكير بأضرارها على صحة الساكنين" (ابن جرش، 2021: 6)

يواصل الراوي بتوجيه نقده للبيئة الإيكولوجية والجرائم التي يرتكبها الخبراء في حقل الزراعة فأصبحت الأخلاق النظرية تتعارض مع الأخلاق العملية التي باتت تظهر اليوم أزمة في الأسس القيمية بعد تلاشي الأسس وغروب المعنى ولاسيما بعد تدخل البشرية في الطبيعة فانتفت القيمة الجمالية بعد سيطرة العقل المادي بما ينبه على أهمية الوعي بالعلاقات الاقتصادية في إطار صراع الأضداد، فالجمال مسألة خارجية ووهم بخلاف الحقيقة الجوهرية في الداخل. فأصبح الجمال مجرد شكل بلا مضمون بعد أن تحدد وظيفة الإنسان ووجوده بالعمل وعلاقات الإنتاج وهذا ما يجعله جزءاً من سياسة السوق بعيداً عن أخلاقيات احترام البيئة والاعتراف بكينونتها المستقلة عن التدخلات البشرية ونظامها الداخلي والخارجي. لقد حول ذلك (السيد) المجتمع _الذي رسم السرد له صورة سلبية_ إلى آلة بترويج لسياسة الجشع والاستهلاك النهم لمقدرات الطبيعة وتوسيع تلك الممارسات السلطوية تحت ذريعة أن الإنسان يشغل مركز الكون وسيده بدون منازع، وأنه الأفضل في سلم الموجودات الكونية، ومن ثَمَّ هو الذي يملك الحرية والسلطة المطلقة في الهيمنة على البيئة والتصرف بها كما يحلو له، مدفوعاً برغبة السعي وراء المال وزيادة الثروات والسيطرة على العقول ما نتج عن تلك الممارسات تأسيس لمجتمع طبقي تعمل الطبقة البرجوازية فيه على استلاب حقوق الطبقة الفقيرة وثرواتها باسم القوى والسلطة والعدالة وما على الجميع إلا الرضوخ والاستكانة للأمر الواقع وأن كل محاولة للخروج عن هذا النسق أو التمرد عليه يقابل بالرفض أو الطرد والنفي نهائيًا من الوجود.

يشيد بناء هذا النسق ضمن رؤية فلسفية تتأسس في إطار صراع الإنسان مع البيئة، تقدم الشخصية خلاصة تجربتها في الحياة في ظل الأزمات البيئية التي تعصف بالبلاد، كظاهرة التلوث، وانتشار الأوبئة، إلى جانب انتشار الأمراض والمجاعات، ويستمر هذا النسق التدميري بما ينبئه عن انعدام الرؤية المستقبلية،

وفشل الأنظمة السياسة وخطط التنمية في احتواء الأزمة في ظل تفكك القيم المعيارية الأخلاقية وتشظيها، فتجسَّد تلك الممارسات المبنية على منطق المغالطة إلى ترويج فلسفة ثقافة الاختلاف؛ لتخلق رؤية فلسفية جديدة، تحمل صفة التضاد والمفارقة على وفق مشهد سردي امتاز بشمولية الرؤية والنظرة الدقيقة التأملية للحياة الدنيوية جسد الشعور بالألم جراء واقعه الموبوء المتصدع الذي أظهره الروائي من خلال شخصية "السيد" التي تمثل نسق قبحي مضاد لنسق الأول شخصية "أحمد" وهو العامل والمتخصص في حقل الدراسات البيئية (علم الحشرات) يعمل في مختبر الأبحاث البيولوجية التابعة لأملاك السيد، هناك إذ يواصل أبحاثه المستمرة عن مستعمرات (النمل الأصفر) التي أدت إلى إتلاف المحاصيل الزراعية التابعة لأملاك السيد، وتكمن المهمة الاتيقية الملقاة على عاتقه وهو إيجاد مبيد مضاد لتلك الحشرات للقضاء على التلوث البيئي تقول الشخصية (أحمد) في حوارها مع العم (حسن) : "أن الحياة البسيطة أصبحت عبثاً، كيف أنظر إلى الحياة ببساطة وهي تسحقني بعجلاتها الثقيلة كل يوم؟ كيف أنظر ببساطة إلى راتبي الذي لا يكفي لنصف الشهر، مع أني أعمل في أهم مختبرات الأبحاث البيولوجية في المنطقة ؟ كيف أنظر إلى عجزي عن امتلاك سيارة مستعملة تنقذني من زحام المواصلات ؟ كيف أنظر إلى هذا "السيد" الذي يثري على حساب سكان المدينة، ويتحكم في أرزاق الفقراء ؟" (ابن جرش، 2021: 9)

يمثل السرد انعكاسًا معدلاً للواقع الدنيوي، وأثر الأزمة الاقتصادية على مشكلات الحياة اليومية، وانعكاساتها السلبية على شعور الإنسان وإحساسه بوطأة الحياة ووقع أقدامها على عتبات قلبه المحطم، كما نجد في السرد الإحساس بمعطيات الفكر الوجودي، إذ تمكن الروائي من فلسفة الرؤيا "الحدث المتخيل" وذلك بتحويل الزمن من ماضٍ متحجر إلى زمن سرمدي مطلق / أزلي، وبالتوازي مع نقل الحادثة من صيغة الواقعية إلى المجرد، وما يرافق ذلك من تحويل الرؤية البصرية إلى رؤية (حلمية) عن طريق خاصية المتخيل، وقدرته على التلاعب بالأنساق، فينتقل الحدث من الحيز الجزئي إلى الكلي، أو بالانتقال

من فلسفة التفاصيل الجزئية عبر آلية الحوار الجدلي ما بين الذات والآخر للوصول إلى الحدث الكلي، وتقديمه على وفق صورة متحركة تسهم في استقطاب الرؤى والدلالات والتساؤلات المفتوحة التي تعكس وعي الذات بالعالم، وهو يبحث عن تشييد دولة يوتوبيا تتحقق فيها شروط التواصل السليم التي انتفت في ظل واقع مستلب ومنهار، تحكمه السياسة الطبقية؛ مما عمق الإحساس بقلق الانتماء والشعور بالاغتراب الوجودي المتدفق من عمق إحساس الروائي الشعوري المأزوم.

وفي ظل استمرار آلية السرد نجد بأن النص يتأسس على شعرية الانزياح، على وفق مفارقة عجيبة يعقدها الروائي ما بين الإنسان البدائي الذي قدس الطبيعة واحترمها بخلاف الإنسان الحديث الذي عمل على استلاب حقوق الآخر في ظل انعدام القيم الثقافية على اعتبار أن الإنسان مقياس الأشياء كلها والتي كان من مآلاتها الجموح الإنساني نحو استغلال الطبيعية واستنزافها، وقد نتج عن هذه الممارسات التعسفية نشوء أنموذج معرفي (لا أخلاقي) هيمن على النظام الابستمي الحديث. فالإنسان البدائي أسس لعلاقة تعاقدية/ تواثقية مع الطبيعية، ترتكز على المعاملة الأخلاقية، والاستسلام لحرية الطبيعة، كما ينطوي السرد في نسقه المضمر على إحساسٍ بعمق الرغبة في العودة إلى ما قبل إبرام العقد (حالة الطبيعة) حيث البراءة والفطرة على وفق صورة سردية تعكس تفاعل الثقافي والإيجابي للأنا مع الآخر، بعيداً عن معطيات الواقع المشحون بغياب القيم، يقول الراوي العليم "إن الإنسان البدائي المهدد من جبروت الطبيعة سرعان ما أدرك حق جميع الكائنات في الحياة، والآن بعد أن أصبح أقوى المخلوقات على الأرض راح يسلب من كل من حوله حق الحياة، يفتك كل ما هو أدنى منه، بل يذهب إلى قتل نفسه أيضاً" (ابن جرش، 2021 :14)، يمثل السرد الانحراف عن سلم القيم وعائقًا لتحقيق التكامل والنظام، من شأنه أنْ يرد الذات من المحيط الخارجي وينتشلها من الواقع الوجودي بالارتداد نحو الداخل، مع إعادة إنتاج الخبرة الباطنية. كما يمثل نسق الشر دلالة السلب والانحلال، التي تحول دون نضج الحياة وازدهارها. من هنا ينطوي الخطاب على مقصدية دلالية عالية الدقة

على وفق ترميز لغوي فتغدو الكتابة الإبداعية المتنفس الوحيد للشخصية، تساعد على الغور في دهاليز اللاوعي عند الفنان أو ثاوية وضائعة في شعاب مخياله الإبداعي.

2- نسق القذارة والطهارة:

لقد انشغلت "ماري دوغلاس" بمعالجة عددٍ من الظواهر الثقافية الأنثروبولوجيا كظاهرة القذارة بالتركيز المعالجة على نسق الحياة الدنيوية كنسق الطعام، القذارة ، الأجساد، النكات وأساليب الكلام، والممتلكات المادية التي تعد جزءاً من الأبنية الثقافية فتعطى للرموز الملموسة معناها الذي يؤكد وجودها من خلال الشعائر والكلام. ويعد نسق الانحراف والقذارة مؤشراً ثقافيًا وعلامة ثقافية على مظاهر شيوع التلوث وتفسير الأزمة البيئية ومشاريع التنمية المستدامة انعكاساتها المباشرة على الإنسان والبيئة. لقد ركزت ماري دوغلاس على دراسة الأنماط والأبنية ونسق العلاقات المتبادلة بين الرموز أكثر من تركيزها على المعاني المحددة الكامنة داخل هذه الرموز بالاعتماد على منهجية (أنساق التصنيف) كمدخل ثقافي على اعتبار أن النسق يقسم على قسمين: ظاهر، ومضمر، فالأول "يتمثل في القواعد المعيارية للمجتمع، فالأوامر والنواهي لا تنظم السلوك فحسب ولكنها في الحقيقة تعمل على تقسيم الواقع على مجموعة من الصور والأبنية والأشكال التي تشكل أساس الفكر الإنساني وهي الفكرة التي ترددت بكثرة عند دوركايم ١٩٦٣"(بيرجر، دوغلاس وآخرون، 2009: 178).

وتشكل القذارة نسقاً ثقافياً نسبياً فمثلاً لا يعد الغبار قذارة في حد ذاته، ولكن القذارة هي الغبار على السجاد، وليست مجرد فضلات الطعام تكون نظيفة حينما يتم وضعها في الطبق ولكنها تعد قذارة بخلاف ذلك حينما توضع على المائد فهناك إذاً بُعْدٌ أخلاقي وقيمي للواقع يتحدد بموجبه الخطأ من الصواب. هكذا إن وضع الشيء في نسقه يكتسب الطهارة وبخلاف ذلك يعد قذارة الناتج عن خرق في النظام المعياري الأخلاقي.

ويواصل الراوي توجيه نقده للبيئة الإيكولوجية في إطار صراع الإنسان مع المكان (المقهى) فيسلط الضوء على ظاهرة انتشار القمامة وعدم القدرة على

اتخاذ حلول أخلاقية جادة تجاه تلك الظاهرة القبيحة للدلالة النسقية على مدى وعي الفنان بمخاطرها، إذ تعد مؤشرًا دلاليًا على تقدم الحضارة ورقيها وانتشارها بخلاف ذلك فإنها تحمل دلالة التخلف والتدهور الحضاري، "إذ لم يعد أحمد يطيق قذارة الشارع ، وقماماته التي انتشرت في كل مكان، من دون العثور على حلٍ لهذه الأزمة الآفة، ولا أحد يسعى إلى إيجاد الحلول الممكنة؛ لأن الجميع يتبرم من المساهمة في تكاليف معالجة هذه المشكلة التي أصبحت مزمنة، وكأنها نزلت من السماء حتى اعتاد الناس على التآلف مع قذارة الشارع وقماماته" (ابن جرش، 2021: 6-7)

يطرح السرد نسقاً جديداً يطلق عليه "نسق القذارة والطهارة" محاولًا تقديم دراسة أنثروبولوجية ثقافية حول مفهوم نسق القذارة الذي يؤسس لمفهوم القبح كقيمة مغايرة لما هو ثابت وجوهري، ناتج عن التنافر في العلاقات بين العناصر الثقافية مبنية على الوعي الإنساني المُؤسَّس على المعرفة الدقيقة والتأمل وسياسته تجاه الظواهر البيئية.

يصدر الروائي على لسان الشخصية (أحمد) -البطل الثقافي-، حكمًا بالقبح أدى إلى انتشار القذارة في ظل غياب الأنظمة المؤسساتية، والتخلي عن أدوارها وواجباتها الأخلاقية بعيدًا عن روح المسؤولية والواجب والإلزام تجاه تلك الظواهر والآفات، ومن هذا المنظور يعد الخطاب مؤشراً ثقافياً على انعدام القيم في المنحني البيئي إذ يحل الانفعال محل الفعل لتدليل على استحواذ نسق القبح على مستويين الخارجي "كظاهرة موضوعية" وداخلي على مستوى الإنساني بالتكيف مع تلك الآفات والقذارة لعدم استكمال معطيات الوعي الثقافي، فنسق القذارة هنا جاء سافراً ومباغتاً ومنفراً للشخصية يصدر عن رؤية انسانية مبنية على طاقة تخيلية، لقد استثمر الروائي تلك الظواهر البيئية (كظاهرة القذارة) وانتشار التلوث ومنحها صفة ومتعة استطيقية، كما يلح السرد على إبراز تلك الصور القبحية وانعكاساتها السلبية على المكان (المقهى) بوصفه مكانًا مفتوحاً، كما في المشهد السردي الآتي:

"دلف أحمد إلى المقهى الهادي والنظيف، راوده إحساس بأنه يسافر عبر الزمن أو عبر أفق الأثير، وهي حالة لا يستمر عليه هذا المقهى كما يبدو؛ لأن رواده يجلبون معهم القذارة من الشارع فيما يحاول عمّال المقهى المحافظة على نظافته لأطول وقت ممكن، ولكن هيهات، لأن المقهى – رغم تواضعه الشديد – يحاول تقليد رقي المقاهي في العالم. إذ حرص مالكه أن يضع شاشة مجسمة سعة الجدار، لعرض المناظر الطبيعية المصحوبة بموسيقى رومانسية، وفي أحد أركانه تظهر رفوف مكتبة تحتوي على الكتب القديمة التي لا يلمسها رواد المقهى لأنها مجرد ديكور جامد، رغم اهتمام العمال بنظافتها حتى لا تتراكم عليها الأتربة" (ابن جرش، 2021: 7)

يلح السرد على إبراز تلك المشاهد القبيحة التي تنطوي تحت أقنعة جمالية عبر الصورة الحركية ليؤكد أن الجمال مسألة شكلية دون العناية بالمضمون، هذا دليل على أن الاهتمام بالثقافة وأبنيتها ومركباتها تكاد تكون منعدمة. فتكون القذارة بخلاف الطهارة إحدى نتائج غياب الوعي الحقيقي بأهمية الثقافة فالتغيرات الأخلاقية تقود إلى حدوث تغيرات قيمية تنعكس على الأنظمة السياسية، والثقافية. فالمكان هنا تحقق به الشخصية الانزواء والابتعاد عن هوى الدنيوي، مما يحقق له الشعور بالمتعة واللذة والسعادة المؤقتة. ينطوي الخطاب على وحدة صراع الأضداد ما بين نسقين (القذارة / والطهارة) أو ما بين (الخير/ الشر) أو ما بين (اللذة / والألم) المُؤسَّس بوعي حقيقي بفاعلية المكان في الخطاب السردي وفي تشكيل وعي الشخصيات والإحساس المأساوي بالأزمة البيئية، فإن نسقية القذارة (التلوث) تعد إحدى أهم المشكلات البيئية التي يلح السرد في طرحها. يتحول المقهى من نسق المكان المفتوح / الأليف تمارس فيه الشخصية الخلوة بعيداً عن ثقل الحياة اليومية لقضاء الوقت والشعور بالمتعة، إلا أنه تحول إلى نسق مغلق فصورته الداخلية تعبق بالمفارقات، وإثارة الأسئلة الأخلاقية التي تبحث عن حلول جادة لتلك الممارسات العشوائية/ السلوكية. ويتحول الخطاب إلى قيمة معرفية محرضة على التأمل والتفكير والإحساس والانشداد التأملي العميق، وبذلك لا يعد السرد هنا مجرد هالة سكونية جامدة.

فالقذارة في أبسط مفاهيمها إنها تعبير عن وضع الأشياء في غير موضعها تكتسب صفة عدم الانتظام داخل البنية الكلية.

ترتبط القذارة بمبدأ التنظيم والتصنيف الرتيب للأشياء بهدف استبعاد العناصر غير الملائمة، وهكذا فإن نسق القذارة والطهارة يتوقف على طريقة تصنيف الأشياء والعلاقات المرتبطة بينها وموقعهما من هذا النسق تذهب "ماري دوغلاس" في تأكيد هذه الفكرة: إلى "أنها فكرة نسبية فالأحذية ليست قذارة في حد ذاتها ولكن القذارة أن تترك آنية الطعام في حجرة النوم أو حين يلوث الطعام الملابس. وبالمثل حين نرى أدوات الحمام داخل حجرة الجلوس فهي قذارة كذلك حين نضع الأشياء داخل البيت ويجب أن نتركها خارجه (...) باختصار فإن سلوكنا إزاء التلوث ليس إلا استجابة لأية فكرة تتعارض مع التصنيفات الراسخة في الذهن" (ماري دوغلاس وآخرون، 2009: 178)

وانطلاقًا مما سبق، يكتسب الشيء دلالته من خلال وضعه في المكان والسياق المناسب له، فيكتسب شرعية وجوده ويتحول إلى نسق واقعي اجتماعي له معنى، يمثل نسق القذارة شكلًا من أشكال الانحراف للتعبير عن وضع شاذٍ وضع خارج مكانه بعيداً عن نسق النظام والتصنيف الذي يخضع له، ويشكل من جهة أخرى انحرافاً عن الترتيب القانوني الأخلاقي فالمجتمع يجتهد في إعادة صياغة هذا الترتيب من خلال ما يسمى بالفعل الشعائري، أو ببث أخلاقيات جديدة تؤسس لوعي صحيح، وإعادة تصنيف الحدود والقواعد الأخلاقية، وبذلك تمثل القذارة الانحراف الأخلاقي عن نسق قواعد السلوك المعياري، ولاشك أنَّ تلك التحولات البيئية تنعكس على شعور الإنسان بالسلب والعبث وعدم الجدوى في ظل فلسفة حياتية فقدت معنى الإنسانية وروجت لسياسة الانحراف والصراع للأقوى ويتحول التطور الثقافي من خاصية "الكم" المادي، إلى الكيفي وهو إحساس يعيشه البطل الثقافي "أحمد" العامل في إحدى مختبرات الأبحاث البيولوجية التابعة لأملاك السيد "اعتاد أحمد أنه يجلس إلى طاولته المألوفة، منتظرًا فنجان قهوته دون أن يطلبها يتصفح الأخبار من شاشة هاتفه الجوال دون اهتمام حقيقي، إذ لم تعد الأخبار تعني له شيئاً، الصراعات نفسها لا تنتهي،

محاولاً أن يتخيل صورة العالم القديم الذي عرفة ذات يوم، وهو يتساءل في نفسه: هل ما كان يقرأه عن الماضي في الكتب صحيح أم زائف، شأنه شأن جميع الأكاذيب التي يروجها الإعلام يومياً ؟ مئات – وربما آلاف – القتلى يتساقطون في صراع على بضعة كيلومترات!" (ابن جرش، 2021: 8)

يعلن السرد عن رغبة الذات الحلولية في العودة إلى الماضي إذ البدائية والفطرة والسلامة كمصدر للتنفيس عن كروب الحياة ومشاغلها، وهذا ما يدفع بنظرة شك لما حوله تحديداً الشك بالثقافة المنتجة وبكتب التاريخ. ويتضمن الخطاب إشارة نسقية إلى أن الخوف من التلوث البيئي يماثل الخوف من الانحراف في أنماط السلوك بما يشكل تهديداً للبناء القيمي المعياري للأخلاق، ومن جهة ثانية تعد الجريمة والقذارة "وجهان كظاهرة واحدة، فكل منهما يمثل شيئاً خارج مكانه أو وضعه؛ فالجريمة هي نمط من أنماط السلوك يعمل على اختراق الترتيب القانوني والمعياري. أما القذارة فهي حالة أو وضع غير صحيح فحينما تكون الأشياء في غير مكانها نجد أن كلاً من الترتيب القانوني والمعياري يتعرض لنوع من التحدي... وبالنسبة للأفراد فإن الجريمة غالبًا ما يصاحبها العقوبة. أما القذارة فيلازمها القيام بالتنظيف، غالباً ما نتحدث عن التنظيف حسبما نتكلم على الجريمة أيضاً" (دوغلاس، وآخرون : 182) يمكن عد النسق الثقافي للقذارة والجريمة جزءاً لا يتجزأ من بنية الواقع الثقافي أنها تصدر رموزاً تحمل بداخلها معنى شعائرها ويدعم المنظومة الاجتماعية والسياسية والثقافية هذا النسق من الترتيب والتصنيف والمعرفة في الوعي الجمعي ويسهم الخطاب الروائي في تفعيل ميكانزمات تلك الشعائر بغية وضع الأشياء في موضعها الصحيح داخل التصنيفات المتعددة ثقافياً، ومن ثَمَّ يستلزم إعادة ترتيب تلك الأشياء للوصول إلى النسق الكلي.

ولكل ما سبق تعد ثيمة نسق القذارة والطهارة إحدى أهم الثيمات التي سلط الروائي عليها الضوء لمعالجتها وتفكيكها، إذ تمثل قدرة الروائي على معالجة بعض الأمور الدنيوية والمادية التي تثير في طرحها بعداً فلسفياً على وفق محفز

رؤيوي من منظور سردي، للبحث عن الدال الكامن وراء عمل الأنظمة الأخلاقية.

3- نسق الخيال العلمي:

إذ يعدُّ هذا المصطلح مصطلحاً إشكاليًا؛ وذلك لتعدد التعريفات حوله فكل باحث يعرفه من منظوره الخاص تبعاً لاختلاف زوايا الرؤية فمثلًا يعرفه (إسحاق عظيموف) بأنه " الصنف الأدبي الذي يعالج مسألة الإجابة الإنسانية عن التغيرات الحاصلة على صعيد العلم والتكنولوجية" (سكولز وآخرون، 1996: 32)

كما يعرفه البعض الآخر بأنه "الانتقال عبر آفاق الزمن، على أجنحة العلم المطعم بالمكتسبات العلمية، وغالباً ما يطرق مؤلفوه أبواب المستقبل بتنبؤاتهم من دون زمن محدد، فهو نظرة واسعة إلى العالم يدخل فيها العلم فينتج بحقائقه مع خيال الكاتب، ترسم أحداث تنقلك إلى المستقبل، أو الماضي السحيق، فتثيرك وتذهلك، والرابطة بين الخيال والعلم رابطة مؤطرة متماسكة، ومن يكتب في هذا النوع لن ينجح من دون ثقافة ممتازة يستعملها في أحداث قصصه ورواياته" (ينظر: سكولز وآخرون : 40-45)

وعدُّ أدب الخيال العلمي فرعًا من فروع النقد الثقافي؛ إذ شُكِّلُ نسقًا هامشيًا قوبل بالرفض والازدراء المؤسساتي فاكتسب صفة النسق المضاد للآداب الرسمية، وانتشر بعد الحرب العالمية الثانية بالتزامن مع تيار ما بعد الحداثة، استجابة للتطور والتقدم العلمي والتكنولوجي، وعمل على تحطيم القواعد والسرديات الكبرى، الدين، والتاريخ، والتقدم، والعلم، بالاعتماد على آلية الهدم والتفكيك بالتزامن مع تطور العلم وتقدمه في منظومة حياتنا البشرية، دفعت بالإنسان إلى إعادة النظر في الكثير من المفاهيم والمصطلحات.

وفي القسم الأخير من العمل الروائي يسلط الروائي الضوء على دور وأثر السلبي للمخترعات والاكتشافات والتجارب العلمية على الإنسان والبيئة معًا وتقديمه على وفق مسار سردي يتأسس على المعادلة الجمالية تكشف عن مداليل النسقية المعارضة ما بين نسق الظلم والأذى كما كشف عنه الخطاب الروائي في

القسم الأول، وفي المقابل ترسيخ نسق الجزاء والانتصار لفكرة العدل عبر تفعيل ميكانزمات الخيال بالارتكاز إلى ثيمة الخيال العلمي المبني على صيغة المتخيل المعقول لا يخرج عن نسق حدود العلم وفرضياته عن طريق دمج المحكي الأدبي بالمعرفة العلمية القائمة على خاصية التجريب وروح المغامرة بعيداً عن الشطحات الخيالية، فيندفع القارئ نحو التشويق والإبداع في السياق المحكي القصصي، ويستفزه ويحثه على مواصلة الاستمرار بغية معانقة المجهول يرمي القارئ بمتاهاتٍ لا مخرج منها إلا بمغادرته لمجتمع المتخيل.

يمتاز السرد بخرقه لنسقية قواعد الكتابة الروائية المعتادة وتحطيم منطقيتها بتركيز الاهتمام إلى المعرفة والانتصار للفكرة لكن على حساب الشكل، فيكتسب السرد أبعاده الإيديولوجية في تأسيس جماليات جديدة تنقل القارئ من زمن الحاضر الوجودي إلى زمن المستقبل السرمدي/ المطلق المجهول مدفوعًا بشهوة الفضول في البحث عن فرضيات العلم وآليات تطبيقها محاولًا فك طلاسمها ووضع الحلول لها، ويكتسب السرد صفة الإثارة والوضوح في الرؤية، فيحمل القارئ على مواصلة الإبداع والاختراعات الجديدة والبحث عن الحلول المناسبة انطلاقًا من خيال المبدع الخصب وطاقته التخييلية الإبداعية المحرك الأساسي لفعل السرد والإنتاج.

من هنا يمكن القول إنَّ الوظيفة الأدبية التي نتبناها هنا هي التي تجمع الثقافي بالجمالي في إطار المتخيل الأدبي والتي تضطلع بمهمة أبستمولوجية تتحدد بالقاعدة العلمية لارتباطه بنسق المشكلات الثقافية والاجتماعية التي يحاول الروائي من خلالها إثبات قوة العقل الإنساني وقدرته على الاختراع؛ ليُعيد تشكيل العالم برؤيته بعد تفاقم نسق الشر الذي يعتمل في داخل الشخصية (أحمد) وتدميره مستثمراً التقانات الحديثة فما لا يمكن إنجازه على صعيد الواقع لكن يمكن تحقيقه بوساطة العلم ولاسيما بعد التقدم التقني والتكنولوجي، فيتخذ الروائي من (الحشرة) أداة ووسيلة للقضاء على الشر بعد أن تفاقم واستحكم فيقرر الانتقام من السيد وأتباعه بما فيهم سكان المدينة، فيدفع الروائي شخصياته إلى استثمار إمكانياتهم العلمية ابتداءً من وضع الفروض المنطقية والتحقق من

صحتها للوصول إلى نتائج علمية مرضية بعد التحقق من الفرضية، وبذلك يُقدِّم لنا رؤية معرفية وقيمة أخلاقية عن آلية البحث في منهجية العلوم الإنسانية إذا ما رغبنا في تعديل عددٍ من النظريات فيجد الإنسان فيه معينًا خصبًا لا ينضب من الرؤى والإبداع والخلق المبتكر، وتقرر الشخصية (أحمد) الباحث في علم الحشرات صنع مبيد مضاد للمبيد الأول المصنوع من مادة (البير- مثيرين) للقضاء على النمل الأصفر الذي فتك المحاصيل الزراعية ودمرها، وذلك عبر تطوير عددٍ من الجينات الوراثية (للنمل الأصفر) وتعديلها والتلاعب بالنسل وتحويله لكي يصبح أكثر دموية وشراسة وتحول الخطاب الرواية من نسق الخير/ الإيجابي تتخذ فيه الشخصية فعل الاستكانة والخضوع والمقاومة إلى نسق الشر لتبدأ مرحلة الانتقام ورفع الظلم عن المدينة " **في تلكم الليلة راودته الفكرة الشيطانية، بدت له في البداية مستحيلة التنفيذ، كيف لفرد وحيد أعزل أن يبيد مدينة بأكملها؟ بالمنطق العادي هذا من المستحيلات ، لكنه يرى أن ذلك بالعلم ممكن. تذكر يوم رأى مستعمرات النمل الأصفر المجنون في طريقه من المختبر حيث تمنى لو أن ذلك النمل يستطيع التهام البشر كما يلتهم السلطعون.**

عادت تلك الفكرة تبزغ في رأسه من منظور مختلف، إن علم الهندسة الوراثية قد جعل الكثير من الأشياء التي كانت في الماضي مستحيلة تبدو الآن ممكنة، فقط لو أمكنة تعديل بعض الصفات الوراثية لهذه السلالة من النمل حتى تصبح أكثر دموية وشراسةً وحبًا للحم، فإن بمقدور عدد كبير منها التهام إنسان يافع" (ابن جرش، 2021: 95)

لقد انتقل أحمد إلى وضع خطته في حيز التنفيذ، والممارسة التطبيقية، فتكمن كخطوة أولية من إنشاء معمل خاص به لإجراء التجارب العلمية، بعد أن استقال من حيز النظام المؤسساتي وأسس له مختبرًا خاصًا به عمل فيه على تطوير السلالة (النمل الأصفر) لوضع مبيد مضاد للمبيد الأول، وانتقل بالخطة إلى حيز التنفيذ فبدأ بفكرة جمع العينات ذلك النمل من أطراف المدينة والأماكن النائية كالريف مثلاً. يعلن السرد عن تفاعل الذات مع الموضوع داخل البرنامج السردي الثاني مستفيداً من طريقة البحث العلمي والنظرة المغايرة للعلوم،

ويتضمن في نسقه المضمر الرغبة في تجديد التعامل مع الفكر، والبدء من نقطة مغايرة لغرض التحديث، وتجديد الفكر العربي في حقل العلوم الإنسانية، والارتقاء بالذائقة الأدبية العلمية وتقديمها على وفق رؤية معرفية تتأسس على وفق مبدأ التوازنات وما بين العقل/ الفكر، والحس، على وفق رؤية مركبة/ مخاتلة تجمع ما بين الواقع والمتخيل في فضاء واحد لتأكيد ثقافة الاختلاف والتأسيس لثقافة معاكسة تسهم في خلخلة انسجام العقل الإنساني مع الظواهر البيئية والأشياء، لكي يؤثث لنسق جديد يدعى بالنسق الثوري المضاد.

"**كان أحمد يعمل على الحالة دون أن يتبادل أي كلمة مع أحد، يبقى طوال الوقت صامتًا، واضعًا عينيه على عدسة المجهر، ناقلاً إياها بينه وبين دفاتره ومعادلاته. يشعر بالصمت خلال ما يقوم به من عمل، فهو لم يكن يفضل مبدأ اللجوء إلى الإبادة كإجراء وحيد، بل تمنى لو أنه تفرغ للدراسة بسبب ظهور هذا النوع من النمل في بيئة غريبة عليه. وما الذي جلبه إلى هنا عبر المحيطات، لكن مثل هذه الأبحاث لا مجال لها هنا، فهي لا ترضي رغبات السيد وبالتالي لن يتم تمويلها، ولا حتى إتاحة الوقت له. مع أن إجابة هذا السؤال من الممكن أن تسهم في حل تلك المعضلة، لكن الجميع يلجأ إلى السؤال الأسهل: كيف يمكن القضاء على هذا النمل دون الإضرار بالتربة؟**" (ابن جرش، 2021: 47)

وتطرح الشخصية عبر آلية السرد أسئلة أبستمولوجية على لسان الراوي العليم، تتعلق بكيفية اكتساب المعرفة وشرط تحققها على الواقع، من حيث كيفية اكتسابها وسلك أقصر الطرق للوصول إلى النتائج المرغوب بها. يرى أحمد أن منطق الإشكالية في الأزمة البيئية تتركز حول كيفية التعامل مع المشكلة فبدلًا من اللجوء إلى استعمال المبيدات بوساطة تركيب عقار (البيرميثرين) وما يحتويه هذا التركيب على غاز يسبب صدمة عصبية للنمل فيسهل القضاء عليه، لابد من تحويل النظرة المعرفية هنا إلى البحث عن سبب وراء ظهور ذلك النمل الأصفر لكي يسهل القضاء عليه، وأخيراً وهو خطاب ينطوي على خصوصية الطرح والقدرة الإبداعية الخلاقة إلى جانب العمق الرؤيوي؛ للتدليل على المسار

المعرفي الخاطئ الذي يتخذه النسق الجمعي (هم) وإثبات قدرة وكفاءة (الأنا) من التوصل إلى نتائج علمية دقيقة، وتحقيق شهادة الاختراع يقول أحمد: "**أدركت أن زملائي يسيرون في الاتجاه الخاطئ. ومازالوا يتعاملون مع الأزمة اعتماداً على خبراتهم السابقة مع النمل، ولم يفكر أحد في أن هذه الفصيلة من النمل لم تقابلهم في بيئتنا من قبل، فتجردت، من خبراتي السابقة وبدأت أبحث من جديد حول هذا النوع وكيف يتعامل معه الاستراليون، وفي الوقت نفسه فإن كل أنواع المبيدات ستكون ضارة بالتربة إذا ما ترسبت عليها، ومن هنا جاءت فكرة الغاز الخفيف القابل للتطاير بمفعوله السريع**" (ابن جرش، 2021: 49)

يقوم السرد بتجسيد ثقافة الابتكار والقدرة بانوجاد شيءٍ من العدم، بتجريد الذات من الخبرات السابقة، أي المعرفة السابقة على الخبرة، والبدء بنمط جديد بعيداً عن نمط التفكير الشائع، كما هي الحال في الأزمات الماضية، والبدء بالتعامل الموضوعي مع المادة على وفق معطيات وأساليب جديدة بالاعتماد على الخبرة الثقافية للفنان على وفق رؤية ثاقبة، بما يسمح تقديم كل ما هو جديد ومبتكر، ويمكن من حل تلك الأزمة البيئية، والقضاء على ظاهرة تلف المحاصيل الزراعية بوساطة استعمال الغاز الخفيف القابل للتطاير؛ لتخفيف آثاره السلبية في التربة، ويسهل القضاء عن ذلك النمل الأصفر القادم من استراليا. فالاختراعات لها أثر كبير في تغيير مسار البشرية، وتؤدي دوراً كبيراً" في تصحيح علاقة الإنسان بالبيئة، بما يسهم في تطوير الحضارة الإنسانية، " **بدأت بعض الفروض الأُخرى في الظهور في ذهنه، فراح يدونها ويفكر في كل منها على حدى، أن هذه الحشرة من أجل إتمام مهمتها يجب أن تكون ذات أجسام مقاومة لطرق القتل التقليدية، كالنيران والماء ومشتقات البترول وغيرها، كما أنها يجب أن تكون مقاومة أيضاً للدعس بالأقدام. يجب أن يجد السيد نفسه أمام حشرة لا يستطيع دعسها بقدمه**" (ابن جرش،2021: 97)

تندفع شخصية (أحمد) الباحث في علم الحشرات بروح المغامرة، رغبةً في العثور على كل ما هو جديد في حقل الإيكولوجية، جاء السرد يحمل قيمة معرفية يجمع ما بين نسقين: العلم والسرد، بمراوغة فنية لتحقيق الدهشة

والانبهار الجمالي لدى المتلقي، والقدرة على تنظيم خياله من الفوضى ومنحه طابع الانتظام والتناسب والتوازن، عبر تفعيل الطاقة التخيلية الخلاقة لتحقيق الإبداع، أما المتخيل فهو المادة الفنية بعد اكتمالها ونضجها.

نجد تفاعل الذات العارفة مع الموضوع والمباشرة في الشروع بالتحويل الجيني لـ(النمل الأصفر) عبر استنساخه للجينيات الوراثية إلى نمل آكل للحوم البشرية، يقدم الخطاب الروائي مداليل ثقافية تتراوح بين كونها وظيفة دعائية بهدف الدعوة للإفادة من معطيات العلم ونتائجه، كما يتضمن قيمة تنبؤية وذلك لاستشراق أحداث مستقبلية أو انقاذيه لغرض تبيان بعض مخاطر الاكتشافات العلمية وأثرها في الإنسان، وتنبيه القارئ إلى الوعي لما يجري من حوادث وتغيرات ثقافيه تطرأ على حاضره ومستقبله، لقد أضفى الروائي عنصر المفاجأة والدهشة عبر استحواذ ثيمة الخيال العلمي على النص.

وعلى مستوى الزمن الروائي الاستطيقي، يتحرك الزمن ضمن نسقين داخلي نفسي/ وخارجي (واقعي ثابت)، عبر تداخل السرد القصصي بالحبكة وانفتاحه على لعبة استطيقية يكشف عن نسق سلطة الراوي العليم /كلي العلم يقدم سردًا موضوعيًا قائمًا على خاصية العلم الذي اضطلع بمهمة قص الحكي على لسان الشخصية الرئيسة (أحمد)، إذ يعقد المؤلف مناورة سردية ما بين السارد العليم/ والشخصية الروائية فينتقل الحدث من الذات إلى الشخصية وهو يعيد إنتاج محرق الدلالة الثقافية فتأتي الحوادث والمواقف والرؤى مسقطة على الشخصية الرئيسة (أحمد) من لمسات الفنان وتعكس رؤاهُ الوجودية، وفيض إحساساته، ويدخلنا الروائي في عمق المباغتة، إذ يمارس سلطته على السرد ويسمح له بالتنقل والتحليل والإقناع فهو الذي يدير دفة الحديث فيخرج عن إطار الشخصية الرئيسة ويظهر بلسان الروائي، وعليه يصبح الروي والحكي برؤية فردية واحدة ومحددة؛ ولإبراز الرؤية الموضوعية على حساب الرؤية الذاتية بما ينسجم مع مقصدية المؤلف، إنَّ القص كله يقوم على راوٍ واحدٍ يتكفل بسرد الحوادث وروايتها عن الشخصيات الأُخرى ويقدمها عبر الرؤية من الخلف، وهو يرسم الشخصيات الأُخر داخل الخطاطة السردية.

يتحول الزمن في تلك اللحظة الجمالية من نسق الزمن المادي المتحجر المقيت الراكد إلى زمن إبداعي يتسم بميسم اللانهائي يتجاوز سيولته الزمنية /مفتوح ومتجدد في رؤاه يحاكي العصور كلَّها ويدخلنا في صراع الذات الوجودية، فالروائي له القدرة على خلق زمنه الاستطيقي الخاص به متحرك بأطيافه ليعيش حيوات متجددة وإبداعية متوالدة مستقبلية، يمنح الخطاب الروائي صفة الخلود السرمدي لحظة الإسقاط الكتابي. فالروائي هنا يتجاوز زمنه الواقعي الحقيقي/ الجامد الثابت ليدخل زمنه الإبداعي ويعيد طرح زمنه الكوني/ الوجودي ويمد دلالته ليشمل رحلة حياة طويلة مرتبط بلحظة خلق التجربة الفنية واكتمال مخاضها، بما أنَّ الفن ليس إلا تعبيرًا عن الرؤية أو حدس فمن أجل ذلك يعد عملية سيكولوجية تعمل داخل عقل الفنان قبيل عملية الإسقاط الكتابي.

وتأسيساً على ما تقدم نستطيع القول إنَّ النص الروائي لا يتحدد وجوده بمرحلة تاريخية معينة، إذ يتميز بانفتاح أفق دلالته على مسار رؤيوي متجدد، فالحدث يتميز بنسق التجدد وليس حدثًا ثابتًا أو قارًا.

لقد اضطلع الروائي بمهمة تحقيق العدالة والمساواة، بهدف تأسيس أطر أخلاقية ودولة يوتوبيا تتحقق فيها شروط التواصل السليم الفعّال أو لبعث اتيقيا جديدة للتواصل عبر التحرر من نسق العلاقات المشوهة، بالبحث عن شروط القبلية للممارسة التواصلية، وهي قيم ثقافية تتجسد على مستوى فعل التصور، وممارسة ذلك الفعل في الخطاب السردي بالاعتماد على أداة اللغة الثقافية، بحيث تبقى العدالة قيمة أخلاقية ومطلبًا سياسيًا إنسانيًا لا يمكن عزلها عن ثيمة الحرية لبناء مجتمع منظم.

" **انتابته حالة من النشوة عندما فكر أن يكون أداة تحقيق العدالة. في عالم لا يوجد فيه السيد والعبد**" (ابن جرش، 2021: 102) تعد الذات الفاعل الثقافي تقوم بإداء نشاطٍ واعٍ ومركبٍ بين فعل الالتزام الثقافي –تجاه قضايا مجتمعه كمثقف عضوي– لتحقيق المنفعة فيتخذ من الحشرة رمزًا للقضاء على السيد وأعوانه. نجد عدم إعطاء الروائي تسمية خاصة للشخصية إذ اكتفى بتسمية الصفة ومناداته بـ اللقب "السيد" وتركها بلا اسم لتهميشها للتدليل على أنها

شخصية خيالية وليست حقيقة واقعية يتخذ منها الروائي بطلًا مركزيًا مضادًا إذ شكَّل بؤرة مركزية يتموج من خلالها الخطاب فيكتسب دلالات متعددة. لقد اتخذ الروائي من شخصية أحمد البطل الثقافي داخل البرنامج السردي المنقذ الوحيد للمظلومين من بطش السلطة، ومتخذًا من الحشرة وسيلة للقضاء على هذا الحاكم الظالم، وهي حقيقة راسخة من الميثولوجيا القديمة، فالشعور والإحساس بالظلم ليس وليد اللحظة الراهنة، إنما هو مقترن بتاريخ البشرية منذ أن قتل (قابيل هابيل)، يمكن عد تلك الحادثة الباعث الأول على الشرور والكراهية، يقول العم (حسن) للشخصية (أحمد): " **فالإنسان يظلم أخاه الإنسان منذ بدء الخليقة، منذ قتل هابيل وقابيل، ونحن نتوارث الظلم والبطش جيلاً بعد جيل**" (ابن جرش، 2021: 89). للدلالة على استمرارية نسق الشر وإشاعة لغة الدم وسفك الدماء.

إنَّ القيم الأخلاقية تتأسس على احترام القواعد الإنسانية وإشاعة المحبة والخير والسلام، وأنَّ استفحال قيم الشر ناتج عن انغماس الفرد في مجال العلاقات الإنتاجية واستهلاكية للملذات المادية فتراجع حضارة السلوك أمام حضارة ذات نمط تشيؤي يجعل الإنسان فاقدًا القدرة على تشكيل بيئته بما يضمن استمرارية البقاء.

لقد اتخذ الروائي من النمل سلاحًا ضد البشر وهي فكرة نجد مرجعياتها في الأنثروبولوجية الثقافية، إذ اتخذ الروائي من الحشرة سلاحًا رهيبًا صالحًا للاستعمال بالاعتماد على آلية تحفيز عملية الاستنساخ إلى أن بلغ نحو ثلاثين ضعفًا لمعدله الطبيعي فيتم تحويله إلى حشرة آكلة للحوم البشرية، وتجلَّى في السرد قدرة الروائي على المزج ما بين المتخيل السردي بالمتخيل العلمي والخروج بنتائج مرضية يعطي الإحساس بروح المغامرة والدهشة في الوصول إلى النتائج المرضية، فأوجدت مسخاً جديداً معتمدًا على أسلوب المباغتة والمفاجأة لإثارة التشويق. كما يصور السرد نهاية السيد وحاشيته وابنته حسناء على وفق صورة سردية تنطوي على القبح أقرب إلى اللحظة الفنتازية يمكن عدُّها من شطحات الخيال المتحررة من قيود العقل والمنطق.

"كان أبوها و بعض رجاله يجرون في كل اتجاه، وقد علقت بهم حشرة غريبة الشكل لم ترها من قبل، تشبه النمل، لكنها أكبر منه حجمًا، وأجسادهم تنزف بغزارة، وهم يصرخون من الألم، وعلى طاولة في منتصف البهو تقبع علبة كبيرة، اقتربت منها لتجد في قاعها ورقة مكتوب عليها بخط كبير

"إهداء من أحمد الحشرة"

استسلمت لدموعها بصمت، ولم تقاوم حين بدأت تشعر بزحف النمل على ساقيها" (ابن جرش، 2021: 130-131)

وهو سرد ينطوي على فعل الجزاء حيث البشاعة وقبح المنظر على وفق صورة مأساوية تكشف عن صرخات وعذاب الظالمين، وهو المصير نفسه لقيه ذلك الضابط، وتمثل الحشرة حالة هلع وقلق للناس، إذ تحولت إلى مصدر رعب تهدد الوجود الإنساني وتواصل زحفها نحو المدينة، ليختتم الرواية مع ارتفاع حدة توتر الحدث والمفاجأة، إذ يتفاجأ أحمد بقدوم هذا المسخ الجديد واقترابه من منزله فيسرع للحاق بوالدته لإنقاذها فجاءت الخاتمة ذات نسق مغلق "**نظر من النافذة إلى سماء المدينة التي بدأ الضباب ينقشع عنها، وقال:**

إنها الحشرة يا أمي ... " (ابن جرش، 2021: 135)

جاء السرد يحمل دلالة ثقافية وقيمة أخلاقية وتربوية هدفه الوعظ والنصح ويطرح أسئلة أخلاقية عن السر الذي يقبع وراء الكراهية؟ وعن التحول الكلي في المنظومة الأخلاقية على مستوى السلوك الشخصي للأفراد؟ وما الدوافع النفسية التي تجبر الإنسان على التحول من نسق الخير إلى نسق الشر؟ فإذا ما أردنا أن نفهم الأزمة البيئية بسبب تماهي علاقة الإنسان بالطبيعة لابد من فهم الطبيعة السيكولوجية للإنسان أولاً، يقول السارد " **فقد كان يفكر في أحمد، كل ما يحدث ما هو إلا الوسيلة المثالية التي قد يفكر فيها أحمد للانتقام، الحشرة القاتلة لقد نعته السيد بالحشرة، وتلك الحشرة كان عليها أن تكتب مصير السيد، وتضع نهايته، يا له من درس قاسٍ! ويا لها من وسيلة دموية! لكن ما ذنب الناس ؟! كيف تحولت الكراهية في أعماق أحمد إلى إعصار كاسح لا يبقي ولا يذر ؟**

كيف أصبح ذلك الشاب الطيب الحالم مجرمًا ؟ سفاحًا؟! لا يتورع عن قتل الأبرياء؟!"(ابن جرش، 2021 :133)

يتعمق الروائي على لسان العم "حسن" داخل الشخصية عبر تبئير الرؤية ليكشف عن أفعالها وتصرفاتها وتغيراتها السلوكية النفسية.

وأخيراً هو سرد معرفي/ علمي ينطوي على آخر ما توصلت إليه المنجزات والاكتشافات العلمية والتقنية، يستشرف الرؤية المستقبلية، منبهًا إلى العواقب والدمار البيئي وأثر تلك المخاطر في الإنسان في المستقبل، وهو سرد يعنى بنقد الفعل المعرفي بجانبيه التجريبي والنظري وبغية إنتاج أنموذج معرفي جديد معتمدًا على التجارب والمختبرات والأدوات من العينة، فضلًا عن الاستعانة بعددٍ من الأجهزة.

وفي الختام نجد أن رواية "السيد والحشرة" لـــمحمد بن جرش، جاءت لتترجم أثر المكتشفات الحديثة والمخترعات العلمية التي هي على وشك الظهور على وفق منظور رؤيوي يجمع ما بين العقل والعاطفة ممزوجًا بلمسات المبدع، بما يمنح السرد دفقه شعورية وهو ينطلق من رؤية وهمية غير متحققة ومع إمكانية حدوثها على المدى القريب بهدف تأسيس وعي فلسفي وعلمي داخل الخطاب الروائي فما لا يمكن تحقيقه في الحاضر يمكن تحقيقه بوساطة الفن، لإشباع شهوة الفضول الروائي العلمي وتطلعاته المستقبلية، ويصبح الخطاب الروائي ميدانًا تجريبيًا للاكتشافات العلمية والمخترعات، ومن ثَمَّ يناقش الروائي أهم المشكلات الأخلاقية المترتبة على ظهورها وأثرها في البيئة، وما ينطوي عليه من سياسة التحذير والإنذار للكشف عن أسرار العلوم والاكتشافات وما تنطوي عليه من أنساق المضمر ليقدمه لنا جاهزًا مستشعرًا المخاطر التي باتت تهدد عالمنا للدفاع عن مستقبل البشرية، والبحث عن أشكال حياة بديلة تحت مسوغ الاحتمال المنطقي وليس سرابًا خياليًا للوصول إلى إدراك الحقائق الكبرى والتلاعب في أسرار الخلق الكوني وبأسرار الوجود بوساطة التقانات الحديثة مع تفكيك للواقع السوداوي بمساراته كلها الذي قسم المجتمع تقسيمًا طبقيًا (أعلى / أدنى) كما تدل عليه ثنائية (السيد / العبد).

في ضوء ما سبق لقد اضطلع النقد الإيكولوجي بوظيفيتين ثقافية معرفية/ والقيمية لا تنفصل عن السؤال الأخلاقي بهدف رفع الوعي البيئي وتحقيق مبدأ العدالة الكونية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

❖ إبراهيم، زكريا،(1966). ***الأخلاق والمجتمع***. ط1. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

❖ إدجار، أندرو، سيد جويك، بيتر، (2014). ***موسوعة النظرية الثقافية- المفاهيم والمصطلحات الأساسية***. ط2. (ترجمة: هناء الجوهري). القاهرة: المركز القومي للترجمة.

❖ بدران، محمد أبو الفضل، (2015). ***أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية***، الإمارات العربية المتحدة: وقائع المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية_ المجلس الدولي للغة العربية.

❖ براون، مارشال، (٢٠١٦). ***الرومانسية_ موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي***. ط1. (ترجمة: ابراهيم فتحي ولميس النقاش). القاهرة. المركز القومي للترجمة.

❖ بعلي، حفناوي،(***2007) مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن: المنطلقات المرجعيات المنهجيات***. ط1. الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون.

❖ بن جرش، محمد ، (2021). ***رواية السيد والحشرة***. ط1. الإمارات العربية المتحدة: دار كتاب.

❖ بيترل، بيرجر، ماري دوغلاس وآخرون،(2009). ***التحليل الثقافي***. د.ط. (ترجمة: فاروق مصطفى وآخرون). القاهرة: مكتبة الأسرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب.

❖ جرارد، جرج، (2009). ***النقد البيئوي***. ط1. (ترجمة: عزيز صبحي جابر). الامارات: دار كلمة.

❖ خلو، سعيدة، (2016). ***أنطولوجيا الأدب الهامشي بين النقد والوظيفة رواية الخيال العلمي أنموذجًا.*** مجلة الأثر. ع24. الجزائر.

❖ الخليل، سمير، د.ت. ***دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي- إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة.*** د.ط. بيروت: دار ناشرون.

❖ الرملي، محسن، ***رواية الخيال العلمي خصائصها إشكاليتها وأسئلة المستقبل.*** مجلة شؤون ثقافية. مج 8 . ع31.

❖ زيما، بيير، (١٩٨٩). ***نحو سوسيولوجيا النص الأدبي.***(ترجمة: عمار بلحسن). مجلة العرب والفكر العالمي. ع (5).

❖ زيمرمان، مايكل، (2006). ***فلسفة البيئية من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجية الجذرية.*** ط1.(ترجمة: معين شفيق رومية). الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

❖ سكولز، روبرت وآخرون، (1996). ***آفاق الخيال العلمي.*** د.ط. (ترجمة: حسن حسين شكري) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

❖ شاهين، أسامة حسين، ***النقد البيئي والدراسات البينية.*** مجلة العلامة. مج 7. ع1.

❖ شلوحي، رواء جليل، (2020). ***البيئة من ثقافة المحيط إلى ثقافة النص.*** مجلة الأديب العراقي. ع25. الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق.

❖ عبد الإله، جفال، (2018). ***فلسفة البيئة - أخلاق جديدة في مواجهة سلبية العلم عند هنريك سكوليموفسكي.*** مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ. مج 13. ع2 .

❖ مجموعة مؤلفين، (2020). ***التربية البيئية وسؤالا التنمية والأخلاق -نحو وعي بيئي جديد.*** ط1. الرباط: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات- دار

القلم .

❖مجموعة مؤلفين، 2013. ***الفلسفة الأخلاقية من سؤال المعنى إلى مأزق الإجراء***. ط1. الرباط: دار الأمان.

❖ويسلنج، لويس،(2018). ***الأدب والبيئة مسألة ما بعد الانسان***.(ترجمة: عبد الرحمن طعمة) مجلة فصول. مج 26. ع 102.